رأب الصـــــــــدع

بقلم روز دي لاسكير

لمـــــاذا يحتـــــاج مخـــطـــطـــو الطـــــــــوارئ للمعـــــــــرفة المستفـــــادة مـــن الجمهـــور

يمارس الذين يقومون بالتخطيط للتخفيف من عواقب الإرهاب الإشعاعي – بما في ذلك الهجمات الإرهابية على البنى التحتية لمحطات القوى النووية – أعمالهم في ظروف غير مواتية. فبالرغم من أنّ الجمهور يعتبر محور اهتمام المخططين ونقطة الارتكاز في تعليمهم وفي إدارة المخاطر إلا أنّ الاستراتيجيات والخطط تُطور دون إشراك الجمهور مباشرةً.

ومع غياب صوت الجمهور، فهل نعلم حقيقة ماذا يحدث له في مثل هذه المواقف وماذا يمكن فعله للتعامل مع المشاكل التي يواجهها الجمهـــور؟ وهل نقدر الدور الذي يمكن أن يقوم به الجمهور للمساهمة فـــي جهـــود التصدي والمعالجة تقديراً كاملاً؟ توضح الخبرات والبحوث التي أجريت مؤخراً في الولايات المتحدة حول الكوارث أننا لا نقدر ذلك. ويؤدي هذا بدوره إلى عواقب وخيمة.

دليل من دراسة عـــــن "إعـــــادة تعريـــف الاستعـــداد"

في عام 2003 قام مركز تطوير الاستراتيجيات التعاونية في مجال الصحة بإعداد دراسة للإجابة عن أسئلة مثل "هل الدور الحالي للجمهور في الاستعداد للطوارئ مناسب أم هو محدود لا يعدو أن يكـــون تـــدخلاً سلبياً ينبغي أن يساورنا القلق بشأنه ؟ لقد أتاحت دراسة "إعادة تعريـــف الاستعداد" للشعب الأمريكي أول فرصة لتوضيح كيفيـــة التعامـــل مـــع نوعين من الهجمات الإرهابية، ومن ذلك مثلاً انفجار "قنبلة قذرة" (وسيلة لنشر مادة إشعاعية). وبدلاً من سؤال الجمهور حـــول اعتقـــادهم فـــي أحداث مجردة أو التعبير عن آرائهم في الخطط والسياسات، استخدمت الدراسة سيناريوهات تضع الجمهور في موقف واقعي محدد في مكـــان وزمان حقيقي يمكن أن يتوقعوا فيه حدوث حالة طوارئ، ثم سألت ماذا هم فاعلون.

كشف أحد السيناريوهات عن كيفية رد فعل الجمهور إذا ما تلقـــى تعليمات بالبقاء داخل مبنى بدلاً من البقاء في المنازل، إذا انفجرت قنبلة قذرة على بعد ميل من مكان وجودهم ورأوا سحابة من الغبار الإشعاعي الملوث تتحرك صوبهم. وكشفت الدراسة أنّ الخطط المُعدة للتصدي لمثل ذلك النوع من الطوارئ الإشعاعية غير مجدية، ذلك لأنّ الجمهور لـــن يتصرف على النحو الذي حدده المخططون. لقد أفاد 59% فقـــط مـــن السكان أنهم سوف يظلون بالمبني طالما أخبرهم المسئولون بذلك.

ما السبب في ذلك ؟ – لقد كشفت الدراسة – وعلى عكس الحكمـــة التقليدية – أنّ إحجام الجمهور عن اتباع التعليمات لا يرجع إلى الجهـــل أو التمرد أو الفزع. بل على النقيض تماماً، فإنّ معظم أفراد الجمهـــور لديهم أسباب واعية وقوية تبرر تصرفاتهم. وذلك يعني أنّ المشكلة تكمن في الخطط وليست في الجمهور.

إنّ المشكلة الأساسية في خطط التصدي الحالية للقنابل القذرة هـــي عدم بذل الجهود الكافية لإتاحة ظروف تجعل من الممكن للجمهـــور أن يقي نفسه بالاحتماء في مكان تواجده.

من المرجح أن يكون كثير من الناس خارج المنزل وبعيـــداً عـــن باقي أفراد الأسرة وقت انفجار قنبلة قذرة حيث يمكن أن يكونـــوا فـــي العمل أو المدارس أو السوق. وقد أظهرت الدراســـة أنّ ملايينـــاً مـــن الأمريكيين لن يتبعوا التعليمات بالبقاء في المبنى الذي هم فيـــه إذا لـــم يتأكدوا من أنّ أطفالهم وأزواجهم في أماكن معدّة مـــسبقاً ويتـــوفر بهـــا الرعاية اللازمة لهم أثناء وقوع الكارثة. ومما يدعو للأسف أنّ الأماكن المعدّة لتكون مأوى آمن عند الحاجة إليها قليلة جداً في الولايات المتحدة بل هناك عدد أقل من الأماكن التي توفر أنواع التجهيزات التي تجعـــل الجمهور يشعر بالأمان الحقيقي.

دلـــيل مـــن إعصـــار كاتـــــرينا

في عام 2004 توقعت دراسة "إعادة تعريف الاســـتعداد" معانـــاة ومصرع عدد كبير من السكان بلا داعٍ إذا لـــم ترتكـــز اســـتراتيجيات التصدي على ما سوف يفعله الجمهور عند وقوع أي كارثة. وقد ثبتـــت صحة هذا التوقع بعد مرور أقل من سنة عندما ضرب إعصار *كاترينـــا نيوأورليانز* في عام 2005.

لنتأمل ما حدث في *نيوأورليانز*، فقد صدرت تعليمات لجميـــع سكان المدينة بالإخلاء، لكن لم يتمكن الكثيرون من القيـــام بـــذلك نظراً لأن بعض الأسر أو بعض أفرادها لم يكن لديهم وسيلة انتقال،

أو الأموال اللازمة للحصول على الاحتياجات الأساسية مثل الوقود أو المأوى، وقد يكون لدى البعض إعاقة حركية أو ظروف صحية خطيرة. وقد لقي عدد قليل من هؤلاء مصرعهم. أما الذين آووا إلى إستاد *سوبر دوم* فقد مروا بظروف فظيعة زادت من وطأة معاناتهم النفسية والجسدية. وكثير ممن أخلوا المدينة أخيراً انفصلوا عن أسرهم وأصدقائهم مما حرمهم المساندة الإنسانية التي يحتاج إليها البشر في مثل هذه المواقف الصعبة.

وإذا ما تم تحديد المشكلات التي واجهت السكان أثناء الإخلاء وتم التعامل معها مسبقاً لكانت النتائج مختلفة تماماً. كان من الممكن القيام بالتعبئة اللازمة قبل حدوث العاصفة لأتوبيسات المدارس (التي أكلها الصدأ) والطائرات الحربية (التي أتت بعد حدوث الواقعة) لنقل غير القادرين أو من ليس لديهم سيارات. كان يمكن إصدار بطاقات دَين للسكان الفقراء قبل الكارثة لاستخدامها في هذا الموقف. كان من الممكن إعداد مأوى يحفظ على السكان أمنهم (عند حدوث كوارث).كان من الممكن تطوير خطط الإخلاء لتضمن وجود الأسر والتجمعات الاجتماعية معاً.

صدع خطير في الاستعداد للطوارئ

لقد كشفت كل من دراسة "إعادة تعريف الاستعداد" وإعصار *كاترينا* الصدع الخطير في الاستعداد للطوارئ، حيث يعد المخططون تعليمات للجمهور كي يتبعوها دون معرفة ما إذا كان من الممكن اتباعها، أو معرفة مدى صلاحية هذه التعليمات كإجراءات وقائية يمكن أن تتخذها مجموعات معينة من السكان. وفي الوقت الحالي لا يمكن تحاشي هذه النتيجة من الناحية الفعلية، ذلك لأنّ المقاربة التي استخدمناها في هذا الإعداد للتصدي للطوارئ دفعت المخططين إلى قراءة أفكار الجمهور. وبدون التواصل المباشر مع الجمهور فإنّ المخططين لن يتمكنوا من إدراك العوائق والمخاطر التي تجعل من الصعب على مجموعة معينة من الجمهور وقاية أنفسهم أثناء الطوارئ، أو ما يمكن فعله لمواجهة هذه المشاكل. وعندما يفتقر المخططون إلى المعلومات المأخوذة من الجمهور فإنّ ذلك يؤدى إلي إصدار تعليمات يكون اتباعها غير مجدٍ وغير آمن للكثيرين.

مقاربة جديدة للعمل مع الجمهور

ماذا يجب أن نفعل لإصلاح ذلك الوضع؟ يعد تغيير طريقة التفكير أحد التغييرات اللازمة. وعلى المخططين ألا ينظروا إلى الجمهور على أنّه محور الاهتمام فحسب، بل كذلك كمصدر قيّم وعلى قدر كبير من المعرفة يسهم في إعداد جماعات التصدي للطوارئ. إنّ الأفراد الذين يعيشون ويعملون في جماعات هم فقط الذين يستطيعون معرفة ما سوف يواجهونه فعلياً في مثل هذه المواقف. ولا يتسنى للمخططين العمل بفاعلية دون هذه المعرفة.

أما التغييرات الأخرى فتتعلق بالعملية ذاتها. إنّ الجمهور يحتاج إلى فرص للتفكير المسبق في حالات الطوارئ والإسهام بمعرفتهم في جهود استعدادات المجتمع. كما يحتاج الجمهور أيضاً إلى فرص للعمل مع أُناس آخرين ومع منظمات أخرى في المجتمع لتطوير الإجراءات وتنفيذها للتعامل مع قضايا الاستعداد.

لقد كان إعصار *كاترينا* الذي وقع في عام 2005 بمثابة جرس إنذار نبه إلى أنّ مجتمع التصدي والاستعدادات للطوارئ بالولايات المتحدة لم يكن بالكفاءة المطلوبة. ولم يستطع كثير من السكان التنبه إلى دعوة الإخلاء وتُركوا دون إمكانية للحصول على الخدمات الأساسية.

وتوضح الصورة: جنود الحرس الوطني من الجيش الأمريكي يوزعون أكياساً من الثلج على المتضررين كجزء من جهود الإغاثة التي تلت إعصار *كاترينا* – *دوفين أيلاند* – *ألباما*.

صورة عن www.army.mail

عمليات المشاركة المجتمعية

يتم تنفيذ عملية المشاركة الشاملة للجمهور بواسطة أربع جماعات متنوعة تعرض إيضاحات محلية عن "إعادة تعريف الاستعداد". وقامت هذه المواقع بالاشتراك مع مركز تطوير الاستراتيجيات التعاونية في مجال الصحة بتطوير عملية المشاركة المجتمعية وتنطوي علي ثلاث خطوات:

- إجراء مناقشات مع مجموعات صغيرة من السكان الذين يعيشون ويعملون في كل مجتمع من الجماعات التى أجريت عليها الدراسة.
- جمع حشود كبيرة متفاعلة من أكبر عدد ممكن من سكان كل جماعة.
- فرق عمل تقوم بجمع سكان الجماعة مع الخبراء والعاملين في المنظمات العامة والخاصة معاً.

وقد أُعدت مناقشات بين مجموعات صغيرة بهدف (1) تفهم المعرفة الفطرية للجمهور لاكتشاف ما يحتاجه المجتمع لوقاية أكبر عدد ممكن من السكان إذا حدث نوع معين من الطوارئ ؛ (2) ترسيخ فكرة التكيّف لدى الجمهور بإعطائهم الفرصة للتفكير في مثل هذه المواقف بشكل مسبق.

ولتحقيق هذه الأهداف نُظمت المناقشات بطريقة مختلفة تماماً عن الطرائق التقليدية، والتي تجرى عادةً في المناظرات العامة، واجتماعات مجالس المدن (المجالس البلدية). وبدلاً من مطالبة الجمهور بالتفكير في الاستعداد للطوارئ بصورة مطلقة لتقديم مدخلات عن المخططات أو خيارات لسياسة تم وضعها فعلياً من قبل الخبراء، فإن المناقشات استخدمت سيناريوهات واقعية مكنت المشاركين من التفكير في مسألة الطوارئ في إطار مرجعي ذي معني لديهم.

بدأت مناقشة كل سيناريو باستقصاء عن مشكلات معينة قد تواجه المشاركين عند محاولة وقاية أنفسهم أثناء هذه المواقف. ثم قامت المجموعة بوضع تصور للإجراءات التي يمكن لها وللآخرين في المجتمع اتخاذها لمواجهة المشكلات التي قاموا بتحديدها.

وبالرغم من أن كل مجموعة كانت تتضمن عشرة أفراد فقط، فقد شارك في المناقشات عموماً مجموعات كبيرة وممثلة لقطاع كبير من الجمهور. وقد شارك حوالي 2000 شخص من المواقع الأربعة في أكثر من 200 مناقشة. وأوضحت المقارنة بالبيانات الإحصائية أنّ المشاركين في المناقشات يتشابهون كثيراً مع الجمهور في كل مجتمع.

ولضمان التأكد من قدرة المشاركين على التعبير عما يقلقهم فعلياً كانت المناقشات غير مقيدة – تركز على أي مشكلات أو تصرفات تطرحها كل مجموعة – دون الحكم على ما قيل. تركز الاهتمام على التأكد من أنّ المشاركين والمجتمع ككل لديهم سجل كامل ودقيق بالمناقشات. ويتم تبادل النتائج المنبثقة من كل المناقشات حالياً ليس فقط بين المشاركين بل وبين أفراد المجتمع الأكبر.

ماذا يمكن أن نتعلم من الجمهور

كشف أحد السيناريوهات المشاكل التى قد تواجه السكان عند محاولة وقاية أنفسهم بالاحتماء داخل المكان عند تفجير قنبلة قذرة. وقد دحضت نتائج المناقشة بعض افتراضات الخبراء الخاصة بالجمهور، محددةً مدى الخطورة والمشكلات غير المتوقعة التي قد يواجهها الأفراد عند محاولة الاحتماء داخل مكان، وتوضح كيف يمكن للأفراد والمنظمات داخل المجتمعات جعل الاحتماء داخل المكان استراتيجية وقائية أكثر جدوى وأماناً.

هناك افتراض طرحته النتائج يتعلق "بالفوبيا الإشعاعية" وهي خوف غير عقلاني من الإشعاع لا يتناسب مع المخاطر الصحية الحقيقية له ويتجاوز الخوف من مخاطر أخرى مألوفة. وقد لوحظ في الوحدات العسكرية أثناء الاختبارات التي تمت في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي أن كثيراً من المخططين توقعوا انتشار الفوبيا الإشعاعية بين المدنيين في حالة وقوع إرهاب إشعاعي مما يسهم بشكل أساسي في الضرر النفسي والتمزق الاجتماعي الذي يسببه الهجوم.

ومع ذلك عندما ننظر إلى انفجار قنبلة قذرة من وجهة نظر الجمهور، فإننا نجد أنّ الإشعاع ليس الخطر الوحيد – بل ليس أكبر خطر – يواجه الجمهور. فقد أظهرت مناقشات المجموعات الصغيرة أنّ السكان يريدون تجنب التعرض للغبار والإشعاع من الخارج ويتخوفون من وصول الغبار والإشعاع داخل المبني الذي يحتمون فيه (من خلال أنظمة التهوية أو النوافذ المكسورة أو الأبواب المفتوحة). لكن هناك مخاطر أخرى تواجه الأفراد حال بقائهم بالمبني مما يدفعهم للخروج ولتعريض أنفسهم للإشعاع مثل:

- عدم توفر الإمدادات والأدوية معهم في الحالات المرضية الحادة.
- عدم توفر الغذاء والماء ودورات المياه الصالحة للاستخدام وأماكن الاستلقاء والنوم.
- عندما يكون المكان حاراً أو بارداً بشكل غير محتمل.
- عدم توفر إمكانية الحصول على مواد يعتمدون عليها (مثل الكافيين أو النيكوتين أو الكحول).
- الإقامة في مكان شديد الازدحام.
- الإقامة مع أُناس يتسمون بالجموح والعنف.

وحتى إذا شعر الجمهور بالأمان عند البقاء داخل المبني، فإن كثيراً منهم سوف يشعرون أنهم مضطرون للمغادرة – والتعرض للإشعاع أثناء عملية الخروج – حتى يجنبوا الآخرين ممن يعولونهم خطر التعرض للإشعاع مثل الأطفال أو الأفراد الذين ليس لديهم قدرة على الحركة في الأسرة والحيوانات الأليفة الموجودة بالبيت بمفردها، ويضطر البعض لمغادرة المكان لتجنب فقدان الممتلكات أو مصدر الرزق (مثلاً إذا اعتقد البعض أن أشخاصاً سوف يقتحمون منازلهم ويسطون عليها أو إذا لم يكن باستطاعة البعض الذهاب إلى العمل أثناء الاحتماء داخل المبني).

ومن الواضح أنّ الجمهور يواجه عدداً من المشكلات الخطيرة في هذا النوع من الطوارئ. ومع ذلك وفي ظل الظروف الراهنة يرى كثير منهم استحالة حماية أنفسهم وحماية الآخرين والحيوانات والأشياء التى يهتمون بها. وذلك نظراً لأنّ الإستراتيجيات المصممة لوقايتهم من الإشعاع – بالاحتماء داخل مكان – تجعلهم يتعرضون هم ومن يهتمون بهم لمخاطر كبيرة لم توضع في الاعتبار مسبقاً.

أظهرت المناقشات أنّ كثيراً من التعليمات التي يتلقاها الأفراد في الولايات المتحدة توفر مساعدة ضئيلة وأحياناً تجعل الأمور أكثر سوءً على سبيل المثال:

- تُوجه التعليمات في الوقت الحالي للأمريكيين بالاحتفاظ بالغذاء والماء الذي يكفي لمدة ثلاثة أيام داخل المنزل وأيضاً الاحتفاظ بالأدوية اللازمة. ولكن في حالة انفجار قنبلة قذرة سوف يضطر الكثير من الجمهور إلى الاحتماء في مبانٍ أخرى غير منازلهم وبالتالي لن يتمكنوا من الحصول على الإمدادات اللازمة من الغذاء والماء والدواء الموجودة بالمنزل.
- يتم إعطاء تعليمات للسكان بتحديد مكان يمكن أن يتقابل فيه أفراد الأسرة عند وقوع حالة طوارئ، ولكن عند انفجار قنبلة قذرة فإنّ من الممكن أن يسبب الذهاب إلى هذا المكان تعرض أفراد الأسرة للخطر إذا ما اضطروا للمرور بالمنطقة الملوثة للوصول إلى هذا المكان.
- يتلقي مديرو المبني ومكان العمل تعليمات بتعيين أفراد مسئولين عن المبني أثناء حالات الطوارئ، ولكن بما أنّ هؤلاء الأفراد هم أنفسهم جزء من المجتمع فسوف يضطر بعضهم للمغادرة لرعاية أطفالهم وأسرهم. وإذا كانت المعلومات الأساسية عن المبني ليست متاحة – كما هو الحال غالباً – فلن يعرف أحد أماكن الأشياء أو كيف يمكن التصرف.
- يتلقي المديرون كذلك تعليمات لتحديد "غرف آمنة" حيث يمكن أن يحتمي فيها الجمهور من المواد السامة الموجودة بالخارج، لكن كثيراً من هذه الغرف الداخلية بلا نوافذ، وليست كبيرة بالقدر الكافي لاستيعاب عدد الأفراد المرجح أن يحتاجوا إلى مأوى (ومثل تلك الغرف في المحال والمباني العامة تكون أكثر كثيراً من عدد الموظفين). وبعض هذه الغرف لا تتسع لتحرك الأفراد أو للاستلقاء. كما أنّ بعضها لا يتوفر بها إمكانية الاتصال والإمدادات ودورات المياه. ومثل هذه الغرف الآمنة لن تفي بتوفير الاحتياجات الأساسية بل أيضاً ستعمل على خلق ظروف تحرض الأفراد على التحول إلى السلوك الجامح أو العدواني.

توضح نتائج المناقشات أنّ الاحتماء داخل مكان لا يعد حالياً استراتيجية آمنة أو مفيدة في رأي الكثير من الجمهور. ولكن بمجرد أن حدد المشاركون المشكلات التى قد تواجههم، فإنّ ذلك جعلهم في وضع جيد للتفكير في وسائل التعامل مع هذه المشكلات. وبشكلٍ مجمل توضح أفكار المشاركين حول التحركات أنّ المجتمعات قادرة على جعل استراتيجية الاحتماء داخل المكان مفيدة ووقائية لمعظم الأفراد – استراتيجية يمكن أن تحفظ على الأفراد أمنهم دون تعريض الأفراد الآخرين أو الحيوانات غير المصاحبين لهم في الوقت نفسه للضرر، ودون المخاطرة بمنازلهم وسبل رزقهم. وإنّ الكثير من الناس والمنظمات هم في الواقع جزء من الحل – وليست الحكومة وحدها – كما أنّ الأفكار والتفهمات التي نتجت عن المناقشات توفر لهم خارطة طريق مفيدة يمكن السير عليها.

مزيد من العلاقة المتبادلة مع الجمهور

يمكن للمخططين المسئولين عن تطوير استراتيجيات التصدي لأعمال الإرهاب الإشعاعي تعزيز فاعلية استراتيجياتهم بتطوير علاقة متبادلة مع الجمهور. إنّ القلق الأساسي لدى الكثير من الجمهور في حالة وقوع الهجمات الإرهابية الإشعاعية يتركز حول حماية أنفسهم وحماية الآخرين والحيوانات والأشياء التى يهتمون بها.

قد يكون خبراء الإرهاب الإشعاعي مصدراً مهماً للجمهور لإخبارهم كيف يمكنهم حماية أنفسهم على أفضل نحو في الظروف المختلفة من المخاطر التى يواجهونها في مثل هذه الطوارئ. وهي مخاطر الإشعاع. ولنأخذ على سبيل المثال السيناريوهات التي يكون فيها نشر مواد مشعة من خلال وسائل مختلفة، ما هو أفضل إجراء يتخذه الأفراد الموجودون خارج وداخل المباني وفي الأماكن المختلفة في المجتمع؟

وبمجرد توفر هذه المعلومات يمكن أن يصبح الجمهور مصدراً مهماً للخبراء والمخططين حين يصفون لهم العوائق والمخاطر التي يواجهونها عند محاولة اتباع تعليماتهم، ويحددون لهم أنواع التحركات التي يمكن أن يتخذوها ويتخذها الآخرون للتعامل مع المشكلات التي تواجههم. ومن خلال عينات المجتمع المتناولة في دراسة "إعادة تعريف الاستعداد" تم التوصل إلى التعرف على كيفية دمج الجمهور بهذه الطريقة.

ومن خلال إتاحة الفرصة للجمهور للتفكير في الطوارئ مسبقاً – وباستخدام قدراتهم الخاصة في حل المشكلات – تساعد عمليات المشاركة المجتمعية على بناء القدرة على التكيف التي يحتاجونها للتعامل مع أعمال الإرهاب الإشعاعي والطوارئ الأخرى. وتساعد عملية تمكين الجمهور والخبراء والأفراد في المنظمات العامة والخاصة من الجمع بين معرفتهم ومواردهم على إيجاد ظروف بالمجتمع تجعل الوقاية آمنة ومفيدة لأكبر عدد ممكن من الجمهور أثناء الطوارئ. وبإتاحة هذه الظروف تؤدي العملية إلى تطور خطط الاستعداد لتكون جديرة بثقة الجمهور بها.

روز دي. لاسكير(طبيب M.D) – مدير مركز تطوير الاستراتيجيات التعاونية في مجال الصحة ومدير شعبة الصحة العامة في أكاديمية نيويورك الطبية.

البريد الإلكتروني rlasker@nyam.org

ولمزيد من المعلومات حول دراسة "إعادة تعريف الاستعداد" زوروا موقع www.cacsh.org